الرؤية النقدية في أدب طه حسين
خلفيات وأبعاداً

الدكتور خليل ذياب أبو جهجه(*)

ـ أطر حياتية وثقافية

اربعة وثمانون عاماً[1] رحلة عمر اجتازها طه حسين. بدأها في «عزبة الكيلو»، في صعيد مصر. رضيعاً مبصراً، وطفلاً يحبو، يدب، ينقل الخطى لاهياً مع أخوة وأتراب. في السنة الثالثة فقد البصر بفعل داء لعين ألم به. وبدأت طفولة بصيرة، غابت معها، عن طه الطفل، ملامح النور وما يكشف، وأسدلت الظلمة حجاباً كثيفاً. وانفلت عقال الذكريات الغضة، ذخيرة السنوات المبصرة، على قلتها، لترسم تضاريس سبق أن كحلت عينيّ الطفل، وهي سياج القصب الذي لا تفصله عن باب الدار إلا خطوات قصار... وعَسُر عليه أن يتخطى هذا السياج، أو «ينسلَّ في ثناياه»، لأن قصبه أطول من قامته ومقترب كأنه متلاصق، وينساب شمالاً، «إلى حيث لا يعلم له نهاية»، ويميناً إلى آخر الدنيا، «إلى قناة عرفها حين تقدمت به السن، وكان لها في حياته ـ أو قل في خياله ـ تأثير عظيم»[2].

اطمأن طه إلى تلك التخوم والحدود التي رسمها لعالمه الطبيعي. ولو لحقبة من الزمن. أما عالمه العائلي فكان يحس، فيه، بمكانه خاصة بين ثلاثةَ عشرَ من أبناء أبيه، وهوالسابع بينهم. وجد عند الأم الرحمة والرأفة، أحياناً، وحيناً الإهمال والغلظة، وعند الأب اللين والرفق، والإهمال من وقت إلى آخر. أما الأخوة فكانوا يبدون الكثير من الاحتياط في تحدثهم إليه ومعاملتهم له، مما أشعره، بالأذى، لأنه وجد في سلوكاتهم «شيئاً من الإشفاق مشوباً بشيء من الازدراء»[3]. وعرف لاحقاً السبب، وأدرك أن مَنْ حوله «يستطيعون ما لا يستطيع؛ وينهضون من الأمر لما لا ينهض له»، مما أثار حفيظته التي استحالت إلى «حزن صامت عميق»، حين سمع «إخوته يصفون ما لا علم له به، فعلم أنهم يرون ما لا يرى»[4].

حرّم على نفسه ألواناً من الطعام، ولم يبحها إلا بعد ان جاوز الخامسة والعشرين، خصوصاً تلك التي تؤكل بالملاعق، لإنه لا يحسن اصطناع الملعقة، وكان يكره أن يضحك أخوته منه، وكثيراً ما فعلوا ذلك، أو تبكي أمه، أو يعلمه أبوه في هدوء حزين وغدا «قليل الأكل لا لأنه كان قليل الميل إلى الطعام، بل لأنه كان يخشى أن يوصف بالشره أو أن يتغامز عليه أخوته»[5].

أحب اللعب، وحرّم معظم ألوانه التي طالما عرفها وأحسّ أنه يتقنها، وكان يشارك أخوته ألعابهم، بعقله لا بيده، وتحريمه هذا دفعه إلى الرغبة في الاستماع إلى القصص والأحاديث وإنشاد الشعر، وحديث الرجال إلى أبيه، والنساء إلى أمه، أتقن حسن الإستماع الذي عوض فقد الرؤية والبصر[6].

اقتفى سلوك ابي العلاء، ورأى نفسه في أطوار عديدة من حياة هذا الرجل[7]، وقرر أن يصحبه في ما بعد، برفق وحب، وأن يسير

(*) استاذ النقد الأدبي والأدب المقارن، في الجامعة اللبنانية ـ كلية الآداب ـ الفرع الخامس.

(1) ولد طه حسين في ١٤/١١/١٨٨٩ وتوفي في ٢٨/١٠/١٩٧٣.

(2) طه حسين: **الأيام** دار المعارف بمصر ص ٥٢ لا. ت. ج. ١ ص ٣ ـ ٥.

(3) و(4) المصدر نفسه ص. ١٧ ـ ١٨.

(5) المصدر نفسه ص. ٢٢.

(6) المصدر نفسه ص. ٢٢ ـ ٢٤.

(7) المصدر نفسه ص. ٢١.

معه، سيرة الصديق الوفي الأمين، فلا يسوءه، في نفسه، ولا في رأيه. وقد تملك نفس طه هذا الإحساسُ، وبعد أن قرأ قول ابي العلاء:

«لا تظلموا الموتى وإن طال المدى إني أخاف عليكم أن تلتقوا»[٨]

ختم القرآن وحفظه، وهو لم يتجاوز التاسعة من سنيه، ولا يعرف كيف حفظه، أو بدأه أو أعاده، ودعاه الجميع شيخاً[٩]. وتلونت رحلة التعليم وتوزعت بين البيت والكتاب والمحكمة والمسجد، وبيت المفتش، ومجالس العلماء، وحلقات الذكر، وبدأت أيامها، تحلو حيناً وتمرّ حيناً آخر، وتمضي فيها بين ذلك فاترة لحيفة»[١٠]. وفي خريف سنة ١٩٠٢، تحقق الحلم ونزل طه القاهرة، وغدا أزهرياً بالفعل لا بالوعد. وسمع عن الأستاذ الإمام محمد عبده من تلاميذه، فأعجب بما سمع وشايعهم، وأمضه الحزن والألم ألماً انتهت إليه معركة الأستاذ مع القيمين على الأزهر، ومع الخديوي[١١]. وبعد أن تعرّف بقسط مما يعجّ به الأزهر، من علوم الدين والدنيا، انتابته الحيرة، في اختيار السبيل الذي يسلك، أيسعى ليصبح شيخاً فقيهاً، أم يتجه إلى دراسة الأدب وعلوم اللغة. وأخيراً يئس الفتى من الأزهر واشتد ضيقه به وبأهله وبحياته في القاهرة، «ولم يبق له أمل إلا في درس الأدب العربي...»[١٢] ورغم أنه سلخ من العمر ثمانية اعوام، في طلب العلم في الأزهر، فإنه قد قطع الصلة بينه وبين هذا الصرح «في «دخيلة نفسه وأعماق ضميره» إلا انه قرر وصل ما إنقطع. أو ما همّ أن ينقطع. وان يظل طالباً بالجامعتين: الجامعة الأزهرية، والجامعة المصرية العام (١٩٠٨). وليحيى حياة مشتركة يتجاذبه فيها قديم الأزهر، في ذلك الحي العتيق، بين «الباطنية» و«كفر الطماعين»، وجديد الجامعة، في ذلك الحي الأنيق من شارع قصر العيني وبذلك غدا مشاركاً في الصراع بين القديم والجديد[١٣]. وتتوطد علاقته بالجامعة، ويتتلمذ على ايدي مستشرقين بارزين منهم: كارلو نالينو الإيطالي، وميلوني، وليتمان الإلماني، وسنتلانا، وجويدي[١٤].... ومن أساتذته المصريين: إسماعيل رأفت، وحفني ناصف، والشيخ محمد الخضري، والشيخ محمد المهدي، والشيخ طنطاوي جوهري، وسيد

(٨) طه حسين: **مع أبي العلاء في سجنه**، دار المعارف بمصر ١٩٦٣ ص. ٢٣ - ٢٦.
(٩) طه حسين **الأيام** ج. ١ ص. ٣٦ - ٤٧.
(١٠) المصدر نفسه ١١٨.
(١١) المصدر نفسه ص ١٣٨ وما بعدها.
(١٢) طه حسين: **الأيام** دار المعارف بمصر ط ٢٣ لا. ت. ج. ٢ ص ١٥٣ - ١٧٤.
(١٣) المصدر نفسه ص. ١٨١ - ١٨٤.
(١٤) طه حسين: **الأيام**، دار المعارف بمصر لا. ط ١٩٧٤ ج. ٣ ص. ٣٢ - ٣٨.

علي المرصفي، وقد أتاح له هؤلاء «أن يأوي إلى ركن شديد من الثقافة الشرقية الخالصة، وأتاحوا لمزاجه أن يأتلف ائتلافاً معتدلاً من علم الشرق والغرب جميعاً»[١٥].

كان جريئاً على اساتذته، يجادلهم، ولربما تحدّاهم، أو أضحك منهم طلابهم. كما حدث له مع أحد مشايخ الأزهر حين خاطب طه في حدّة ساخرة: «اسكت يا أعمى ما أنت وذلك!» فردّ طه في حدّة: «إن طول اللسان لم يثبت قط حقاً ولم يمح باطلاً» فخنس الشيخ ووجم، ووجم طلابه وقال ذاك لهؤلاء: «انصرفوا اليوم فهذا يكفي»[١٦].

وفي العام ١٩١٤ نال شهادة الدكتوراه بدرجة جيد جداً من الجامعة المصرية على بحث بعنوان «ذكرى أبي العلاء»[١٧]. وضمّن بحثه نقداً صريحاً لأستاذه الشيخ محمد مهدي الذي كان عضواً في لجنة المناقشة، فضاق ذرعاً بهذا النقد وأبى أن يمنح الطالب درجة الامتياز[١٨]. وبعد انتظار لم يطل[١٩]، وتحديداً في الرابع عشر من نوفمبر/ ت٢ أبحر الفتى في بعثة علمية، مع أخيه من الإسكندرية إلى فرنسا[٢٠]: ووصل إلى مدينة مونبلييه محققاً أملاً غالياً، طالما حلم به. انتسب إلى كلية الآداب، وحصّل كثيراً من الآداب الأوروبية بعامة والأدب الفرنسي بخاصة، ودرس اليونانية واللاتينية، التقى مشاهير الأساتذة والأعلام في فرنسا وتتلمذ على إيديهم[٢١].

حاز درجة الليسانس في الآداب العام ١٩١٧، وفي الوقت عينه تزوج «سوزان بريسو» الفتاة الفرنسية، ملاكة الحارس، والتي أبصر بعينيها، ورافقته في رحلة العمر المرّة الحلوة والعسيرة واليسيرة[٢٢].

(١٥) المصدر نفسه ص. ٣٩ - ٤٦.
(١٦) المصدر نفسه ج. ٢ ص. ١٥٢ - ١٥٣. و. ج. ٣ ص ٤٢ - ٤٣.
(١٧) نشر البحث سنة ١٩١٥ بعنوان «ذكرى أبي العلاء» وبدءاً من الطبعة الثالثة غدا العنوان «تجديد ذكرى أبي العلاء».
(١٨) طه حسين **الأيام** ج. ٣ ص ٤٢ - ٤٣، ٦٢ - ٦٣.
(١٩) قبل طه حسين في بعثة إلى فرنسا، لكن الحرب، حالت دون السفر في حينه فتمنى الشيخ الدكتور طه حسين، على رئاسة الجامعة قبوله أستاذاً بالمجان، قبل طلبه، شريطة أن ينال مكافأة قدرها خمسة جنيهات في كل شهر، وقُبل الشرط، ومارس طه التعليم حقبة لم تتجاوز الأشهر قبل سفره.
المصدر نفسه ص ٧٤ - ٨٢.
(٢٠) المصدر نفسه الصفحات نفسها.
(٢١) يذكر أنه تلقى علم الاجتماع على يدي «أميل دوركهايم» و«سلفان بوجليه» واستمع إلى دروس «كازانوفا» في تفسير القرآن، في «الكوليج دي فرانس» وحضر دروس «لانسون» في الأدب الفرنسي، و«ليفي بريل» عن ديكارت.
أنظر: الدكتور عبد الرحمن بدوي: **إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين** القاهرة ١٩٦٢ ص ١٢ - ١٤.
- الدكتور عبد العزيز شرف: **طه حسين وزوال المجتمع التقليدي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ لا. ط. ص ٢٩ - ٣٢.
(٢٢) طه حسين **الأيام** ج. ٣ ص. ١٠٩ - ١٣٨.

في العام ١٩١٨ ناقش بحثاً بعنوان «ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية» نال على أساسه شهادة الدكتوراه، وتألفت لجنة المناقشة من الأساتذة: «بوجليه» و«غوستاف بلوك» و«كازانوفا»[٢٣].

وعاد إلى أرض الكنانة في أوكتوبر ١٩١٩، وعين أستاذاً للتاريخ القديم اليوناني والروماني في الجامعة المصرية الأهلية، وحين تحولت إلى جامعة حكومية عين أستاذاً لتاريخ الأدب العربي في كلية الآداب وأصبح عميداً لهذه الكلية سنة ١٩٢٨[٢٤]. ثم عين مستشاراً فنياً لوزارة المعارف سنة ١٩٤٢، ثم مديراً لجامعة الإسكندرية في العام نفسه حتى غدا في يناير ١٩٥٠ وزيراً في حكومة الوفد، وطرح ضرورة توفير تكافؤ الفرص بين المصريين، والتعليم المجاني. وظلّ بالوزارة حتى أقيلت بعد حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢، تولى بعدئذ رئاسة الشؤون الثقافية في جامعة الدول العربية في العام ١٩٥٥، ولقب بعميد الأدب العربي[٢٥].

تلك هي باقة محدودة جنينا معظمها من لوحات سيرة عمر صاغها الشيخ/الدكتور مؤلفات[٢٦]، أبان فيها عن الاصداء المطيفة به «والإحساسات اللمسية والشميّة والسمعية، وما توحي من انفعالات، وماتثير من أفكار، وما تخيّله للطفل والغلام والفتى من عناصر يبني بها عالمه الخارجيّ»[٢٧] متوسلاً أسلوباً في غاية الفصاحة والبساطة والحلاوة، أشاع فيه النفس الشعري الغنائي في شفافية البلور، كأن منطق اليونان وسلاسة اللاتين، وجزالة العرب، تلاقت جميعها «في شق قلمه ليبرز لنا شخصية البطل التي صقلتها الوحدة، وصهرتها الآرادة، وجملتها المعرفة لتكون نموذجاً حياً لحق الضعفاء في حياة كريمة»[٢٨].

الرؤية النقدية في أدب طه حسين؛ خلفيات وأبعاداً:

إن كان الدكتور طه حسين أديباً ودارساً للأدب ومترجماً ومؤرخاً ومفكراً اجتماعياً، وتربوياً، ومبدعاً في مجال الأدب الإنشائي وبخاصة في أدب السيرة والرواية والأقصوصة فإنه ناقد جريء حاول تجديد الدراسة النقدية، على أسس من المنهجية الديكارتية، متسلحاً بجرأة مميزة وحرية في التفكير وإبداء الرأي، وشخصية أدبية تتسم بعمق الثقافة ذات الاتجاهات الكلاسيكية والمجددة. في حياة طه حسين عدة محطات، وجهت منهجه في فهم الأدب ونقده والإبداع في مجالاته[٢٩]، وطبعته بطوابع خاصة، ومن أبرز هذه المحطات:

- تحصيله العلمي في الأزهر وفي الجامعة المصرية.
- اتصاله بالثقافة الأوروبية عموماً والفرنسية خصوصاً.
- رحلة العمر مع فقد البصر وما حفلت به هذه الرحلة من أحداث ومهمات.

انطلاقاً من هذه المحطات سنحاول إلقاء الضوء على ملامح من خلفيات منهج الدكتور النقدي، ومرتكزاته، نظرياً وتطبيقياً.

سبقت الإشارة إلى علاقات هذا الأديب، بأساتذة مصريين وبعدد من المستشرقين الأوروبيين، في الأزهر والجامعة المصرية، في اثناء تحصيله العلمي وكيف أن هذه الحقبة انتهت بنيله شهادة العالمية/الدكتوراه على بحث بعنوان «ذكرى ابي العلاء». ونضيف

---

(٢٣) المصدر نفسه ص. ١٣٦ - ١٣٨.

(٢٤) اختير عميداً لكلية الآداب، فكان أول عميد لها من المصريين ثم أبعد عن الجامعة إلى وزارة المعارف، بسبب اختلاف في الرأي مع الحكومة، وأعيد إلى الجامعة سنة ١٩٣٤، واختير للعمادة ثانية من سنة ١٩٣٥ إلى ١٩٣٨.
انظر: يوسف أسعد داغر. **مصادر الدراسة الأدبية**، منشورات الجامعة اللبنانية قسم الدراسات الأدبية رقم ٧ بيروت ١٩٨٣ لا. ط ج. ٤ ص. ٤٥٧ - ٤٧٤.

(٢٥) سمع كمال الملاخ، صاحب كتاب **قاهر الظلام** من طه حسين «أن الصاوي هو الذي اطلق تعبير عميد الأدب العربي على طه حسين عندما رأى ان ينشر مقالاً لطه، وكان قد فصلته الدولة من عمادة كلية الآداب، فبدلاً من أن يغيّر شيئاً، رأى ببساطة أن يشطب كلمة واحدة هي «كلية» فاصبح عميد الأدب. ومن ثم «عميد الأدب العربي» فاصبحت تعبيراً استمر مع حياة طه وأصبح علماً عليه على المدى الطويل من تاريخه».
(عن أحمد بو حسن: **الخطاب النقدي عند طه حسين**، دار التنوير للطباعة والنشر بيروت لبنان ط. ١ ١٩٨٥ ص ٧٤ هامش (١).

(٢٦) للمزيد راجع:
- طه حسين **الأيام** ٣ اجزاء، دار المعارف بمصر، الجزء الأول القاهرة الطبعة الأولى ١٩٢٩، الثاني القاهرة ١٩٤٠، الثالث القاهرة ١٩٧٢.
- طه حسين: **أديب** القاهرة مطبعة الاعتماد. صدر لأول مرة ١٩٣٥.
- طه حسين: **شجرة البؤس**، دار المعارف بمصر الطبعة الأولى ١٩٤٤.
- طه حسين: **مذكرات طه حسين** بيروت ١٩٦٧ دار الآداب.
- طه حسين: **على هامش السيرة** القاهرة المطبعة الرحمانية ١٩٣٣.

(٢٧) جبور عبد النور: **المعجم الأدبي** دار العلم للملايين بيروت - لبنان ط. ١ آذار ١٩٧٩ ص ٥١٤.
- ومما يجدر ذكره أن هناك كتاباً، صدر حديثاً، بعنوان **أسلوب طه**= حسين في ضوء الدرس اللغوي الحديث للدكتور البدراوي زهران، دار المعارف بمصر، انظر الفصل الأول.

(٢٨) المصدر نفسه ص. ٥١٤ - ٥١٥.

(٢٩) تجاوز تعداد مؤلفاته في الادبين الوصفي والإنشائي/ الإبداعي والترجمة الستين مؤلفاً، وقد صدرت مجموعة كاملة لمؤلفاته عن دار الكتاب اللبناني بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٤.
ومن أبرز مؤلفاته في النقد الأدبي:
- **ذكرى أبي العلاء**، القاهرة ط ١ ١٩١٥ مطبعة الواعظ بمصر بدءاً من الطبعة الثالثة نشر بعنوان **تجديد ذكرى أبي العلاء**.
- **حديث الأربعاء**، ثلاثة اجزاء الأول في العام ١٩٢٥، الثاني ١٩٢٦، الثالث ١٩٤٥. دار المعارف بمصر.
- **في الشعر الجاهلي** ١٩٢٦ مطبعة دار الكتب المصرية، نشر العام ١٩٢٧ بعنوان **في الأدب الجاهلي**.
- **حافظ وشوقي**، القاهرة ط. ١ ١٩٣٣ مطبعة الاعتماد.
- **فصول في الأدب والنقد** القاهرة دار المعارف بمصر، ط. ١ ١٩٤٥.
- **صوت أبي العلاء** القاهرة ١٩٤٥ العدد ٢٣، سلسلة اقرأ دار المعارف بمصر.
- **خصام ونقد** بيروت ١٩٥٥، دار العلم للملايين.

أنه تيسر لطه حسين، في هذه المرحلة معاشرة المفكر أحمد لطفي السيد (١٨٧٢ ـ ١٩٦٣) الذي جمع بين ثقافات ثلاث: إسلامية، ويونانية قديمة، وأوروبية حديثة. وقد تأثر أديبنا بكتابات هذا المفكر، خصوصاً، ما عكسته من اتجاهات الفكر الليبرالي الأوروبي لكتّاب من أمثال: ڤولتير وروسو، وكانط وستوارت ميل... وترسخت قناعات الفتى/طه بمدرسة أحمد لطفي السيد «وبليبراليته ومشروعه الذي يهدف إلى تجاوز الفكر التقليدي السائد»، وعلى هذا الأساس تمت «مواجهته النقدية للمؤسسات التقليدية وأقطاب فكرها»(٣٠).

وهناك أستاذان كبيران أعلن غير مرة، أنه مدين لهما بحياته العقلية، الأول هو الأزهري «سيد علي المرصفي» (ـ ١٩٣١) الذي كان يسمع دروسه وجه النهار، وقد علمه كيف يقرأ النص العربي القديم، وكيف يفهمه، وكيف يتمثله في نفسه، وكيف يحاول محاكاته. والثاني هو «كارلونالينو» (١٩٧٢ ـ ١٩٥٨) الذي علمه كيف يستنبط الحقائق من ذلك النص، وكيف يصوغه «آخر الأمر علماً يقرؤه الناس فيفهمونه ويجدون فيه شيئاً ذا مال». وعلى أساس ما تعلمه من هذين العلمين بنى قراءاته اللاحقة للأدب الحديث(٣١).

في ضوء ما تقدم، علّمه المرصفي قراءة النص العربي وفهمه «من الداخل في ذاتيته دون تجاوزه». وأتاح له نالينو تفسير النص وتجاوز ذات هذا النص وتوظيفه توظيفاً جديداً، وإعادة صياغته والإنتقال به إلى مجال الكتابة. وبذلك امتلك مع الأول القراءة اللغوية ومع الثاني تجاوز حدود هذه القراءة(٣٢). استناداً إلى هذه المنهجية النقدية نفذ طه حسين مشروعه النقدي في كتابه **ذكرى أبي العلاء** وأعلن أن المنهج القديم، منهج المرصفي في الأزهر، كرّه إليه أبا العلاء، وأتى المنهج الحديث، منهج نالينو في الجامعة المصرية، ليزيل من نفسه هذا الكره ويوقفه «مع بعض الشعراء المحدثين والمتقدمين موقف الرجل الحر، لا يستهويه حب ولا يصرفه بغض، وإنما المجيد والمسيء عنده سواء في الخضوع لقوانين البحث»(٣٣).

ويتأرجح طه الناقد بين المنهجين ويقرّ بحاجته إلى كليهما، القديم «لنقوّي في أنفسنا ملكة الإنشاء وفهم الآثار «التليدة» والحديث «لنحسن استنباط التاريخ الأدبي من هذه الآثار»(٣٤) ولذلك راح يقرأ النص العربيي من خارجه محاولاً أختزاله وموجهاً عنايته إلى عناصر تاريخية معينة شغلت حيزاً مهماً في مشروعه الثقافي بخاصة والنقدي بعامة، لا سيما بعد انتقاله إلى أوروبا، حيث خلص إلى ان للعمل الأدبي ثلاثة جوانب:

واحد فردي يتصل بالأديب المبدع، وثانٍ اجتماعي يتعلق بالمجتمع الذي يعيش فيه هذا الأديب، والثالث إنساني يتجاوز الفرد والمجتمع. ولما كانت هذه الجوانب تشكل طبيعة العمل الأدبي فإنها تؤدي إلى ثلاث إستجابات، على الناقد الأدبي أن يبحث عنها، ويحددها ويتأملها. يغلب الإعتقاد أنه تلمّس تلك الجوانب واستجاباتها بفعل تأثره بالنقد الفرنسي، إذ بخصوص الاستجابة ذات المنحى التاريخي فقد تأثر إلى حد ما بإنجاز هيبوليت تين (Hippolyte Taine) (١٨٢٨ ـ ١٨٩٣) الذي ركز على حتمية الصلة التي تنشأ بين العمل الأدبي والبيئة التي أنتجته، ويلتقي طه مع هذا الاتجاه حين يقول: «وإنما كل أثر مادي أو معنوي، ظاهرة اجتماعية أو كونية، ينبغي أن ترد إلى أصولها وتعاد إلى مصادرها...» ويضيف «إنما الحادثة التاريخية والقصيدة الشعرية، والخطبة يجيدها الخطيب، والرسالة ينمقها الكاتب الأديب كل أولئك نسيج من العلل الاجتماعية والكونية يخضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل الكيمياء»(٣٥).

وفي الاستجابة ذات المنحى النفسي يعتقد أنه تأثر بما أنجزه سنت بوف (Sainte Beuve) (١٨٠٤ ـ ١٨٩٦) الذي دعا إلى التعرف بشخصية الأديب المبدع، لأن هذا التعرف يفضي إلى العلة المباشرة التي أنتجت الأدب الذي يعده «بوف» ممثلاً للمزاج، وصورة نفسية عن شيء قريب مما أسماه «قسمات النفس» (La formation de l'és-prit). ويرى طه حسين أن المهم هو الكشف عن روح الأديب وشخصيته، لنحكم «عليه أو له بما نتبينه منها»(٣٦).

أما الاستجابة ذات البعد الإنساني فترتبط بألوان الجمال ذات البعد العالمي، هذه الألوان التي تقترن دائماً بوجود العمل الأدبي(٣٧).

ومما يجدر ذكره أن الناقد طه حسين استقبل نتائج هذه الاستجابات الثلاث ومزجها بمعطيات التراث النقدي العربي الذي، طالما عرفه خير معرفة، وحاول التوفيق بين الروافد الأوروبية والجذور التراثية، والتعديل فيها، وقد أعانه في هذا التعديل بعض التعارضات في تلك الاتجاهات، مستعيناً بما وفّره له استاذه «جوستاف لانسون» (Gustave Lanson) (١٨٥٧ ـ ١٩٣٤) الذي رأى أن العمل الأدبي ليس وثيقة تاريخية بفعل ما تثيره صياغته من استجابات عاطفية وجمالية، وأن ليس هناك مبادىء صارمة ومحددة، في دراسة هذا العمل، وما على الناقد إلا أن يعتمد على ذوقه

(٣٠) أحمد بو حسن: الخطاب النقدي عند طه حسين ص ٢٧ ـ ٣٥.
(٣١) انظر مقدمة كتاب تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية لكارلو فالينو دار المعارف بمصر ط. ٢ ١٩٧٠ ص ٨ ـ ٩.
ـ طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء دار المعارف بمصر ط. ٦ ١٩٦٣ ص ٥ ـ ١١.
(٣٢) أحمد بو حسن: الخطاب النقدي ص. ٣٨ ـ ٣٩.
(٣٣) طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء ص. ٩.
(٣٤) المصدر نفسه ص. ٨ ـ ٩.

(٣٥) المصدر نفسة ص ١٨ ـ ١٩.
(٣٦) طه حسين: حديث الأربعاء القاهرة ١٩٤٥ ج. ٢ ص ١٩٨.
(٣٧) د. جابر عصفور: «مرآة الأدب، مدخل إلى نقد طه حسين» البحث في مجلة الفكر العربي الصادرة عن معهد الأنماء العربي للعلوم الانسانية عدد ٢٦ آذار ١٩٨٢، بيروت ـ لبنان ص ١٦٠ ـ ١٦١.

التاريخي مما يحيل «النقد عملية تذوق لكل كاتب بنسبة ما في أسلوبه من كمال»[٣٨].

وروح النقد، في رأي لانسون، ذات طابع علمي مستنير لإنها «لا تطمئن في بحثها عن الحقيقة إلى سداد ملكاتنا الطبيعية، بل تنظم خطاها تبعاً للأخطاء التي عليها ان تتجنبها»[٣٩]. وأولى قواعد المنهج العلمي هي أخضاع نفس الناقد لموضوع الدراسة وتنظيم وسائل المعرفة وفقاً لطبيعة الشيء الذي نريد معرفته أو نقده، والقاعدة الثانية، هي الإقرار بوجود دور للتأثرية في دراستنا، وعلينا بالتالي تنظيم هذا الدور وتأطيره ضمن السياق الصحيح[٤٠].

في ضوء ما أخذه طه حسين عن أستاذه «لانسون»، وفّق بين تلك المكونات الثقافية النقدية من «تين» إلى «سانت بوف»، إلى المخزون التراثي، وأطلق منهجاً نقدياً يرى إلى البيئة والمبدع والبعد الإنساني، كمؤثرات في الأدب، ويلتفت إلى الجانب الجمالي الذي ينطوي عليه هذا الأدب الذي «لا يدرك إلا بالذوق، مما يسمح بدخول تأثيرات لنقاد انطباعيين من أمثال «جول لومتر» (Jules Le Maître) (١٨٥٣ ـ ١٩١٤) و«أناتول فرانس» (Anatole France) (١٨٤٤ ـ ١٩٢٤) وغيرهما»[٤١].

ويرفض التسليم التام بما جاء به النقاد الأوروبيون، ويقول: «وفي الحق إن الناقد لا يقنع بما كان يقنع به سانت بوف اوتين أو جول لومتر أو غيرهم من النقاد، وإنما يودّ لو استطاع أن يوفق إلى هذا كله، ويستخلص منه عرضاً شاملاً يطلبه ويسمو إليه حين ينقد، فيفهم شخصية الشاعر أو الكاتب وعصره وفنه»[٤٢]. ويعلن صراحة أنه سواء رضينا أو كرهنا، فلا بد من أن نتأثر بنهج «ديكارت» الفلسفي، القائم على الشك النهجي، وعلى تجرد «الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه، خالي الذهن مما قيل خلواً تاماً...»، وذلك في أبحاثنا العلمية والأدبية، ولا بد من أن نصطنعه في نقد آدابنا وتاريخنا كما اصطنعه أهل الغرب...»[٤٣].

ويوم عاد إلى مصر، حصل في شخصيته مكونات ثقافية، متنوعة، غزيرة، عميقة قامت على قراءات في الفكر اليوناني والروماني والأوروبي والعربي، وأطلق استناداً إلى ما تقدم، كتابات، وأثار معارك نقدية، لا تفهم إلا في هذا السياق المرتكز على هذه المنابع.

(٣٨) د. جابر عصفور: «مرآة الأدب» (مرجع سابق) ص. ١٦١.

(٣٩) جوستاف لانسون: «منهج البحث في تاريخ الآداب»، ترجمة د. محمد مندور، ملحق بكتابه **النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الآداب واللغة**، دار نهضة مصر الفجالة لا ط. لا ت. ص ٤٠٣.

(٤٠) المصدر نفسه ص. ٤٠٦.

(٤١) د. جابر عصفور: «مرآة الأدب» ص. ١٦٣.

(٤٢) طه حسين: **حديث الأربعاء**، ١٩٦٠ ج ٢ ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

(٤٣) طه حسين: **في الأدب الجاهلي**، دار المعارف بمصر ط ١٢ لا ت. ص ٦٧/٦٨، ١١٤ ـ ١١٥.

ـ والآن نسأل **كيف قرأ طه حسين النص العربي؟ وما أدواته في هذه القراءة؟**

دعا هذا الأديب إلى قراءة الأدب اليونانية والرومانية والأوروبية الحديثة للتزود بأدوات تساعد في إعادة قراءة النص العربي، وإعادة صياغة التاريخ الأدبي. ونبه الى أنه لدى استقبالنا البحث عن الأدب العربي وتاريخه علينا «أن ننسى عواطفنا القومية، وكل مشخصاتها، وأن ننسى عواطفنا الدينية وكل ما يتصل بها أو أن ننسى ما يضاد هذه العواطف القومية والدينية ويجب ألا نتقيد بشيء ولا نذعن لشيء إلا من مناهج البحث العلمي الصحيح»[٤٤].

وفعلاً قام بهذه القراءات، وخلص إلى تأسيس منهج نقدي طبقه في معظم مؤلفاته النقدية نذكر منها: **حديث الأربعاء، في الشعر الجاهلي** أو **في الأدب الجاهلي** بعدئذ، **حافظ وشوقي، من حديث الشعر والنثر** و **مع المتنبي**».

ـ «**في الأدب الجاهلي**»: في القسم الأول من هذا الكتاب عرض الأسس التي سيعتمدها في قراءة النص الشعري الجاهلي، إذ بعد أن أشار إلى سبل تدريس الأدب في مصر، ورأى أنه مثقل بالاغلال والقيود، أكد أن الإصلاح «محتوم لا مفرّ منه»[٤٥]، وعرض سبله بدءاً من ضرورة تزود الطالب بالثقافة العامة التي تعد ضرورية «لا لدراسة الأدب وحده، بل لكل دراسة علمية قوية منظمة»[٤٦] وبعد أن حدد مصطلح «الأدب» وصلته بتاريخه، أشار إلى مقاييس للتاريخ الأدبي: المقياس السياسي والمقياس العلمي والمقياس الأدبي، وانتهى إلى طرح ضرورة توفر حرية الرأي والقول والكتابة كشرط لا بد منه، في الدراسات الإنسانية التي تطاول تاريخ الآداب، والأدب بشقيه الوصفي والإنشائي/ الإبداعي، والعلم، والفلسفة، والفن، والحياة العقلية والشعورية[٤٧]. ونبّه قائلاً: «فلتكن قاعدتنا إذن أن الأدب ليس علماً من علوم الوسائل[٤٨]، يدرس لفهم القرآن والحديث فقط، وإنما هو علم يدرس لنفسه ويقصد به قبل كل شيء إلى تذوق الجمال الفني فيما يؤثر من الكلام»[٤٩]. إذاً الأدب عند طه/ الناقد ليس وسيلة إنما هو غاية بحد ذاته، له إستقلاليته وغائيته، وله مقاييسه، وإن ساعد في فهم القرآن والحديث فإنه لا يقتصر دوره على هذه المهمة. وتتلخص نظرة هذا الأديب في ذلك الكتاب إلى الشعر الجاهلي في كون هذا الشعر:

(٤٤) المصدر نفسه ص. ٦٨.

(٤٥) المصدر نفسه ص. ٧ ـ ١٣.

(٤٦) المصدر نفسه ص ١٨.

(٤٧) و(٤٨) و(٤٩) ـ المصدر نفسه ص ٣٧ وما بعدها. ٥٥ ـ ٥٩. ومما يجدر ذكره أن ابرز علوم الوسائل في الدراسات الإسلامية: علم التفسير، وعلم القراءات وعلوم الصرف والنحو، وعلم الحديث والأسانيد، والفقه الإسلامي...

«أ ـ لا يعكس الحياة الدينية الجاهلية.
ب ـ لا يعكس الحياة الاقتصادية الجاهلية.
ج ـ يرينا الأخلاق على غير ما هي عليه في القرآن.
د ـ لا يتحدث عن البحر الذي كان يحيط الجزيرة العربية»[٥٠].

بناءً لما تقدم علينا أن نتلمس مرآة الحياة الجاهلية في القرآن لا في الشعر الجاهلي[٥١] الذي جاء في كثرته بين منحول[٥٢]، ومرفوض «ومشكوك فيه، وقلته في حاجة إلى الدرس، وما يضاف إلى الجاهليين من نثر لا قيمة له ولا غناء فيه»[٥٣].

أظهر في كتابه عن الشعر الجاهلي جرأة مميزة، حين عمد إلى خلخلة مفاهيم طالما بقيت راسخة في أذهان المشتغلين بالأدب وميادينه، وحسبه البعض ملحداً، تمس كتاباته العقيدة الدينية، واتهمه آخرون بإنه إقليمي ومتمغرب تنكّر للعروبة والفكر القومي العربي، وقامت الدنيا ولم تقعد، وتعددت الردود على هذا الكتاب[٥٤] وغيره مما كتب، تنقض آراءه وتحملها غالباً غير ما تحتمل، ودفع ثمناً غالياً، على صعيد وظيفته ومهنته ولقمة عيشه[٥٥] مما دفعه إلى أن يرفع من كتابه ـ موضوع الكلام ـ ما اعتقده الآخرون أنه يمس الدين ويغير عنوانه ليصبح «في الأدب الجاهلي».

ولا ننسى تلك المنهجية العلمية الدقيقة التي سبق لطه حسين أن أسس لها، عبر تكونه الثقافي، وطبقها بإبداع وبراعة، في أبحاث هذا الكتاب وقضاياه ولعمري تكمن في هذه المنهجية قيمة الكتاب.

مرّ معنا أنه تخلى في المرحلة الأولى عن المنهج النقدي القديم الذي يقوم على الذاتي، ويخضع لقانون الحب والكراهية. وأسس منهجاً جديداً، ذا اتجاه موضوعي، يرتكز على قوانين عامة، لا تخضع للنزوات والأهواء الذاتية. وانطلاقاً من هذا المنهج تخلّى عن كراهيته لأبي العلاء، وازداد اهتمامه، عبر بحث أطلقه عنه بعنوان «ذكرى ابي العلاء»، ولاحقه في ما بعد حتى رافقه في سجنه. وبعد عودته من أوروبا عزز منهجه النقدي ورسخ بناه على أسس حداثوية جديدة. وأطلق قراءة تؤرخ للأدب من خلال النص، بعيداً من النزعات الذاتية المضخمة بالنزوات والأهواء.

في ضوء ما تقدم تصدى للمقارنة بين «حافظ وشوقي» وقرر أن ينسى حبه لحافظ وإيثاره إياه مودة وحباً خالصاً. وأن يجعل الرجلين سواء أمام النقد الأدبي الذي أراد أن يعرض له في هذه المقارنة. وبذلك طبق طه حسين قاعدة علمية حديثة دعا إليها النقد الأدبي الحديث، ومفادها ضرورة تخلص المؤرخ بعامة والمؤرخ الأدبي بخاصة «من عواطفه وشهواته وميوله وأهوائه ومن ذوقه في الأدب والفن». وإن بدت المهمة عسيرة فلا بد من التصدي لها[٥٦].

وإن أعلن طه حسين أن المتنبي ليس من أحب الشعراء إليه وآثرهم عنده، وأنه بعيد كل البعد عن أن يبلغ من نفسه منزلة الحب والإيثار وأنه لم يخطر في باله أنه سيعتني به أو يطيق صحبته أو يديم التفكير فيه[٥٧]، فإنه حرص في مقدمة كتابه «مع المتنبي»، على أن يعد بتقديم قراءة متمردة حين قال: «فلنتمرد على الجماعة، ولنثر بالقراء ولننبذ الأحتياط كله إلا هذا الذي لا يؤذي البشر والأخلاق»[٥٨]. ووصف كتابه بأنه ليس دراسة منهجية ولكنها خواطر

---

(٥٠) المصدر نفسه ص ٧٠ وما بعدها.
ـ انظر أحمد بو حسن الخطاب النقدي عند طه حسين ص. ١١٣.

(٥١) طه حسين، **في الأدب الجاهلي** ص ٧٠ ـ ٨٠.

(٥٢) توسع طه حسين في طرح نظرية النحل في الشعر الجاهلي، أبعادها ودوافعها المصدر. نفسه ص. ١١٣ وما بعدها.

(٥٣) المصدر نفسه ص. ٣٣٢.

(٥٤) من أبرز هذه الردود:
ـ محمد حسين: **الشعر الجاهلي والرد عليه** القاهرة مكتبة ومطبعة الشباب.
ـ محمد الخضر حسين: **نقض كتاب «في الشعر الجاهلي»** القاهرة المطبعة السلفية ١٣٤٥ هـ.
ـ محمد الغمراوي: **النقد التحليلي لكتاب «في الشعر الجاهلي»**، بيروت دار الحكمة، ١٩٧٠.
ـ محمد فريد وجدي: **نقد كتاب «في الشعر الجاهلي»**، القاهرة، ١٩٢٦. دار المعارف بمصر.
ـ محمد الخضري: **محاضرات في بيان الاخطاء العلمية والتاريخية التي اشتمل عليها كتاب «في الشعر الجاهلي»**، القاهرة مطبعة الشباب، ١٩٦٣.
ونستطيع أن نجمل مناحي الهجوم الرئيسة حول أربع نقاط هي:
ـ أن طه حسين كذّب القرآن في اخباره عن إبراهيم وإسماعيل.
ـ أنه أنكر القراءات السبع المجمع عليها، وقال إنها ليست منزلة من الله تعالى.
ـ أنه طغى في نسب النبي.
ـ أنه أنكر للإسلام أولويته في بلاد العرب وأنه دين إبراهيم.
انظر تفصيل هذه النقاط عند سامح كريّم: **معارك طه حسين الأدبية والفكرية**، دار العلم بيروت لبنان، طبعة جديدة منقّحة ومزيدة من ٦٩ ـ ١٠٠.

(٥٥) أحيل طه حسين في العام ١٩٢٦ إلى النيابة العامة المصرية أمام رئيسها «محمد نور بك»، فنفى التهم الموجهة إليه، التي تمّ ذكرها في الهامش (٥٤). ورأى هذا الرئيس أن العقاب على الخطأ في الرأي مكروه، ومن ثم حفظت القضية. وفي العام ١٩٣٢ وبناء لأسباب قديمة وأخرى جديدة، أبرزها التنافر بين هذا الأديب ووزير المعارف العمومية «حلمي = عيسى باشا» وغضب الملك منه؛ تجددت المعركة حول كتاب «في الشعر الجاهلي» وتمت مصادرته، وتعرض المؤلف إلى هجوم عنيف في البرلمان وعلى صفحات المجلات والجرائد، وأدانه شيخ الأزهر الظواهري الذي أعلن أن الدكتور طه حسين لا يصلح أن يكون مربياً لجيل في الجامعة. لذلك فصلته الحكومة ومن خلفها الملك من عمادة كلية الآداب، ونقل إلى وزارة المعارف التي فصل منها بعدئذ.
انظر سامح كريّم: **معارك طه حسين الأدبية والفكرية** ص. ٩٥ ـ ١٠٠.
ـ **محاكمة طه حسين**: **(نص قرار الاتهام ضد طه حسين سنة ١٩٢٧، حول كتابه في الشعر الجاهلي)**، تحقيق وتعليق خيري الشلبي، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٢.

(٥٦) طه حسين: **حافظ وشوقي**، دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٤ ص. ٤٨٣

(٥٧) و(٥٨) طه حسين: **مع المتنبي** لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٣٧ ج. ١ ص ٨ ـ ١٣.

مرسلة «في غير نظام ولا مواظبة وعلى غير نسق منسجم. . . » وأضاف قل «ما تشاء في هذا الكلام الذي تقرأه، قل إنه كلام يمليه رجل يفكر فيما يقول، وقل إنه يهذي به صاحبه هذياناً، قل إنه كلام يصدر عن رأي واناة وقل إنه كلام يصدر عن شذوذ وجموح، فأنت محق في هذا كله لإني مرسل نفسي على سجيتها»(٥٩).

هل يعقل أن يعمد الناقد المنهجي، والداعي إلى اعتماد المنهج الديكارتي، إلى سوق كلام فيه هذيان وجموح؟ لِمَ أعلن طه هذا الموقف؟ ألحاجة في النفس يود ألّا يبوح بها؟ وبالعودة إلى مضمون كتاب «مع المتنبي» ومنهجه المنفذ، نجد أنه بدا كلفاً بشخصية المتنبي، مفتوناً بشعره، منهجياً في محاولته إعادة كتابه سيرة ابي الطيب، ووضعها في أطرها التاريخية والنفسية، وذلك بالاستناد إلى النص الشعري المتنبئي. وقد أتى هذا المنهج مركباً من عنصرين: الأول: منهج النقد الطبيعي أو النقد التجريبي، (كما بدا عند تين وسانت بوف وغيرهما). والثاني المنهج التأثري، الانطباعي «الذي يصدر فيه صاحبه عن إحساساته الذاتية وذوقه الشخصي، أكثر مما يصدر عن قواعد وأصول لغوية وجمالية في استخلاص أحكامه النقدية وتعليلها»(٦٠) وخلص طه حسين إلى تركيب ملامح شخصية المتنبي جاعلاً إياها ثمرة للاضطراب السياسي والفساد الاقتصادي والاجتماعي في عصره ونتيجة للمضطرب الواسع العريض الذي عاشه هذا الشاعر في شتاته ما بين الشام ومصر والكوفة وبغداد. وحسب عقل أبي الطيب وفنه ثمرة للرقي العقلي الذي امتازت به البيئة الإسلامية عموماً والعراقية خصوصاً في أواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع الهجريين(٦١).

وإن هدف في حياته الأدبية إلى تمزيق الحجب عن التيارات الأدبية، وشخصيات الأدب، «على أساس إثارة الشكوك وافتراض الفروض والتدليل عليها»، فإنه شك في نسب أبي الطيب المتنبي وأفضت آراؤه حول هذا الشاعر إلى ردود وجدالات أدخلت الدكتور طه في معارك أدبية جديدة(٦٢).

نتوقف على هذا القدر من مؤلفات طه حسين النقدية وننتقل إلى التعرف، ولو سريعاً، بآرائه حول مفهوم الأدب وجماليته وعلاقته بالحرية.

أعطى الأدب مفهوماً مجرداً يتجاوز به الحدود والفواصل التي تربط بين الزمان والمكان. ونظر إليه من حيث هو أدب بغض النظر عن منشئه. أن خلفية هذا الفهم تعود إلى النموذج الليبرالي الذي حاول هذا الأديب، قراءة تاريخ الأدب العربي والنص العربي على أساسه. والأديب المجيد ـ في رأيه ـ هو الذي يشغله بأدبه عن التفكير وينسيه نفسه، ويصرفه عن التحليل والتعليل والتأويل ـ أي بكلام آخر ـ يتيح له متعة القراءة التأثرية الانطباعية. ثم بعدئذ يوفّر له بعد أن يفرغ منه ومن أثره أن يقرأ هذا الأثر قراءة نقدية تحليلية وتأويلية. إن خلفية هذه الرؤية النقدية ترجع إلى المدرسة الذوقية العربية الكلاسيكية القديمة، التي تركز على الذوق الخاص والقيم الجمالية القديمة في الأدب (اتجاه سيد علي المرصفي) وإلى المدرستين الانطباعية والتاريخية(٦٣).

وفي جمالية الأدب وفنيته رأى أن الأدب فن رفيع سام، نبحث عنه في السماء المطلقة السامية المتخيلة، وهي المستقر المثالي له. والأدب «لا يكون إلا جميلاً، لأن طبيعته تقضي ذلك، وهو لم يوجد إلا ليسمو بالنفس إلى حيث تشهد المشاهد الرفيعة من الجمال، شأنه في ذلك شأن غيره من الفنون الجميلة الأخرى»(٦٤).

وبذلك جرّد النص الأدبي من مكوناته الحقيقية المتمثلة بالذات والزمان والمكان، وجعله هدفاً بعينه. ويغلب الاعتقادات هذا المفهوم الجمالي المطلق للأدب، ينسف ويلغي، إن أدرك طه حسين أم لم يدرك، الثوابت التي اعتمدها في دراسة الشعر الجاهلي، والتي توقفت بشكل خاص عند تاريخية هذا الشعر وسماته كوثيقة دالّة على العصر الجاهلي، وكمرآة تعكس هذا العصر(٦٥). وانطلاقاً من هذه النظرة المثالية إلى فنية الأدب المطلقة، كره طه حسين أن يهبط الأديب إلى مستوى العامة، ورأى أن الديمقراطية الصحيحة تقتضي رفع العامة «إلى حيث يتذوقون الأدب الرفيع»، وكره لأحمد أمين «أن يصطنع بعض الاستعمالات العامية التي لا حاجة إليها. . . »(٦٦).

إشكالية أخرى يثيرها طه حسين، تكمن في العلاقة بين النص الأدبي والمتلقي، بين الأدب وجمهوره، ولمن يكتب الأديب للخاصة أم للكافة اي العامة؟ وقد دخل في مناظرات حول هذه الإشكالية مع غير أديب(٦٧).

---

(٥٩) المصدر نفسه ص. ٣ ـ ٨.

(٦٠) الدكتور إبراهيم عبد الرحمن محمد: «حياة المتنبي وشعره، دراسة في كتاب طه حسين «مع المتنبي» انظر **طه حسين وقضية الشعر**، مجموعة ابحاث باشراف صالح جودت، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م لا ط. ص. ٩٩ ـ ١٤٤.

(٦١) المصدر نفسه. ص. ١٠٥ ـ ١٠٧.
ـ سامح كريّم: **معارك طه حسين الأدبية والفكرية** ص. ١٤٨ ـ ١٤٩.
ـ الدكتور يوسف نور عوض: **الرؤية الحضارية والنقدية في أدب طه حسين**، دار القلم، بيروت ـ لبنان، ص ١٤٠ ـ ١٤٩.

(٦٢) من الذين ردّوا على طه حسين في كتابه «مع المتنبي» محمود محمد شاكر. . انظر: سامح كريّم معارك **طه حسين الأدبية والفكرية** ص ١٤٨-١٥٧.

(٦٣) طه حسين: **فصول في الأدب والنقد**، دار المعارف بمصر ط ٤ ص ٢٨.
ـ أحمد بو حسن: **الخطاب النقدي عند طه حسين** ص. ١٥٧ ـ ١٥٩.

(٦٤) طه حسين: **خصام ونقد في المجموعة الكاملة** دار الكتاب اللبناني ط ١ ١٩٧٤ ص ٣٨٥ (المجموعة النقدية).

(٦٥) طه حسين: **في الأدب الجاهلي**: ص ٧٠ وما بعدها.
ـ أحمد بو حسن: **الخطاب النقدي** ص. ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٦٦) طه حسين: **فصول في الأدب والنقد** ص. ٢٠.

(٦٧) لقد اقيمت مناظرة بين طه حسين ورئيف خوري، في كلية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت. وقد نشر نص ما قاله الأديبان في مجلة =

إن لتحرير الأدب من أطر الذات والمكان والزمان، مسوّغات أرادها د. طه لتتناسب مع مشروعه الثقافي ومنهجه النقدي ذي البعد الإنساني. إذ باسم فنية الأدب المطلقة يقترح هذا الأديب قبول الآداب العالمية الأخرى والإقبال عليها والسعي وراء نماذجها وإلغاء الفواصل والحدود بين الآداب وتجاوز التاريخ والواقع وصولاً إلى «تشييد دولة الثقافة» التي طالما طمح إليها عميد الأدب العربي(٦٨).

في ضوء ما تقدم تتضح مقولة الأدب والحرية، إذ يربط هذا الأديب بين طرفي هذه المقولة انطلاقاً من اقتناعه بالاتجاه الليبرالي الذي التزمه طوال حياته. وقد طلب للأدب جواً مفعماً بالحرية، رافضاً توجيهه لخدمة أي غرض محدد، أو إلزامه بخدمة المجتمع، لأن الأدب يلتزم أمام الفن والذوق وحدهما(٦٩). ويأبى التأثر بأجواء السلطة والسلطان والأحداث السياسية والاجتماعية... وهذا ما يفسّر ثبات هذا الأديب واستمراره في انجاز كتاباته النقدية بناء على مشروع نقدي، أسس له منذ ما قبل سفره إلى فرنسا، وأتمّ مداميكه وأكمل بنيانه، بعد اكتمال مكوناته الثقافية الأجنبية، وقلما أدخل تغييرات على خلفياته الفكرية والسياسية، ذات الاتجاه الليبرالي، رغم تتالي أحداث مصيريه على المجتمع المصري والعربي كالحرب العالمية الثانية، ونكبة فلسطين وثورة يوليو الناصرية.

ونشير إلى أن القراءات النقدية التي حفل بها نقدنا العربي قديماً وحديثاً، إنما قدمت لنا النص العربي الذي يعد بمثابة «ذاتنا وتاريخنا» بمناهج كثيراً ما تصالحت مع هذا النص وسوّغته وأزكت فيه القيم الكلاسيكية، ولكنها لم تكد تمس جوهره. وأما قراءة الدكتور طه حسين فقد حاولت الكشف «عن المكونات الحقيقية للنص العربي، وعن وظيفته الأساسية في الحقل الثقافي والتاريخي» وهدفت إلى حل «المعادلة الصعبة في إشكالية النهضة العربية في الحقل الثقافي والأدبي خاصة»(٧٠). وسواء وافقنا هذا الأديب الرأي أم خالفناه فإننا لا نقوى على إنكار الجهد المميز والثابت والمستمر الذي بذله في سبيل قراءة النص العربي في ضوء مشروع نقدي منهجي، يقوم على الروافد الأجنبية ولا يتنكر في الوقت عينه إلى الجذور التراثية(٧١).

وإن حار النقاد في أبعاد علاقة طه حسين بالثقافة الأوروبية عموماً والفرنسية خصوصاً، وبمدى اقتباسه او استلهامه، أم جنوحه وتغربه؛ واتهمه البعض بالسعي إلى «غربنة» الثقافة العربية وآدابها، وبأنه عنصر مخرب، حاول طمس التراث الثقافي العربي الأصيل وخيانته، فإن في هذه المواقف الكثير من الظلم والتجني، إذ إنه على الرغم من أوجه الشبه والبصمات الدامغة التي تركتها الثقافة الأوروبية وخصوصاً الفرنسية في أدب طه حسين «فإنه بقي «عربياً» قلباً وقالباً، لإنه «هضم» و«مثل» بنظرة ثاقبة وحكمة خارقة المنهجيات الفرنسية لتشييد عمارة فكرية يدمغها التراث العربي والبيئة الفكرية العربية ببصمات وتوشيحات أصيلة»(٧٢). وهو الداعي إلى أن نحب أدبنا القديم الذي يعدّه قواماً لثقافتنا وغذاء لعقولنا، ومقدماً لشخصيتنا ومحققاً لقوميتنا وعاصماً لنا من الفناء في الأجنبي ومعيناً لنا على معرفة أنفسنا(٧٣).

وأخيراً حسبك يا أيها الشيخ/الدكتور إنك كنت «صريحاً إلى أقصى حدود الصراحة، جريئاً إلى أقصى حدود الجراءة»(٧٤). وأطلقت مشروعاً نقدياً حسبته يخدم أمتك وأدبها وثقافتها. اجتهدت فكان لك - سواء رضي الآخرون أم كرهوا - نصيب المجتهدين، عند الإصابة أو الخطأ، كما يحدد الحديث الشريف. كنت مجدداً في عصر عزّ فيه المجددون، طرحت إشكاليات مهمة في بنية ثقافتنا القومية سقت لها حلولاً، اعتقدتها صواباً، وما تزال هذه الإشكاليات مطروحة وتساق حولها ردود ونقائض. آمنت بالتواصل بين نتاجات الفكر البشري ومحطاته الإبداعية، بغض النظر عن التخوم والحدود التي اصطنعها بنو البشر، فكنت مفكراً إنسانياً تأخذ وتعطي، مؤمناً بحتمية التفاعل بين ثقافات الأمم وآدابها لذلك كله كنت وما زلت قمة من قمم الإبداع في أمتنا.

صيدا في ١/٣/١٩٩٠

= الآداب البيروتية عدد نوار ١٩٥٥.، وفي كتاب رئيف خوري **الأدب المسؤول**، دار الآداب، بيروت ط ١ ١٩٦٨ ص ٨٩ - ١١٩.
انظر: خليل ذياب أبو جهجه: الحداثة الشعرية في لبنان بين الإبداع والتنظير والنقد (١٩٢٠ - ١٩٧٠)، (أطروحة دكتوراة نوقشت في جامعة القديس يوسف، بيروت ١٩٨٢) غير مطبوعة ص. ١٩٢ - ١٩٣.

(٦٨) أحمد بو حسن: **الخطاب النقدي**.. ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٦٩) المصدر نفسه ص ١٥٦ - ١٥٧، ١٦٣ - ١٦٨.

(٧٠) المصدر نفسه ص. ٦/٧.

(٧١) يقول طه حسين في كتابه **حديث الأربعاء** ج ١ ص ١٣ دار المعارف بمصر ط ١٣:
«نحب لأدبنا القديم أن يظل قواماً للثقافة، وغذاء للعقول، لأنه أساس الثقافة العربية، فهو إذن مقدم لشخصيتنا، محقق لقوميتنا، عاصم لنا من الفناء في الأجنبي، معين لنا على أن نعرف أنفسنا... ولكننا نحب أن =

= يظل أدبنا القديم أساساً من أسس الثقافة الحديثة، لأنه صالح ليكون أساساً من أسس الثقافة الحديثة.. والذين يظنون أن الحضارة الحديثة قد حملت إلى عقولنا خيراً خالصاً يخطئون، فقد حملت إلى عقولنا شراً غير قليل، لم يأتِ منها هي، وإنما أتى من أننا لم نفهمها على وجهها، ولم نتعمق أسرارها ودقائقها، وإنما أخذنا منها بالظواهر، وقنعنا منها بالهين اليسير، فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمود وجهل، كما كان التعصب للقديم مصدر جمود وجهل أيضاً».
انظر: الدكتور يوسف بكار: «طه حسين وقضية الترجمة»، مجلة **عالم الفكر** الكويتية مجلد ٢٠ عدد ٢ ١٩٨٩ ص. ٤٨٢.

(٧٢) Meftah Taher: **Tàhà Hussayn, La Critique littéraire et ses sources françaises**, Tunis, Maison Arabe du livre 1976.
مراجعة د. غازي أبو شقرا: **مجلة الفكر العربي/ مجلة الانماء العربي والعلوم الانسانية** آذار ١٩٨٢ العدد ٢٦ ص. ٣٠٥ - ٣٠٦.

(٧٣) طه حسين: **حديث الاربعاء** ج ١ ص. ١٣.

(٧٤) طه حسين: **فصول في الأدب والنقد** ص ٣٤.